



دراسات في الغزاة :

اليد فاللسان فالقلب

للأستاذ عزيز أحمد فهمي



— أنت التي تظمت أوتار هذا العود هكذا؟ —

— نعم —

— وتقول بكل وقاحة « نعم » ؟ لم أعد أطيق منك سبراً !

— وبهذا أنذر الخضر موسى . ومع هذا فقد أمر موسى

على صحبتته ...

— الخضر وموسى ؟ إذن فكك حكمة في هذا الجبل يا سيدي

الخضر الثاني ...

— من غير شك . فالخروس أخوك الصغير خلفه الله مميّداً

بالترزية والسليقة ، وقد كان هنا طول الأمل ، فلو أنه عثر على

العود مشدود الأوتار لأبي إلا أن يطربنا ويشنف أسمعنا بنشيد

« المنزة والصفدة » وأغنية « الجحش النجيب » ، وغير ذلك من

محفوظاته الرائجة ... فظمت أوتار العود ، ونجونا بذلك من الكرب

— أما كنت تستطيع أن تحفيه ؟

— كان يستطيع أن يجده !

— فإذا وجده أما كنت تستطيع أن تنهيه عن المزف ؟

— بل كنت أستطيع أيضاً أن أدعه يمزف فلا أمنعه ،

ولا أنهيه ، وإنما أدعو الله في قرارة نفسي أن تنقلب أوتار العود

أنفاماً فما يمسا حتى تنفجر في وجهه فترتاح ويرتاح ...

— يا حفيظ ! ولماذا لم تفعل هذا يا سيدي الخضر فكنت

ترينا كرامة من كراماتك ؟

— لا يفعل هذا إلا من كان إيمانهم أضعف الإيمان

-- الكرامات لا يفعلها إلا أضعف الإيمان ؟ ما هذا ؟

إعمال الكرامات للأولياء ...

— الكرامات للأولياء ، وما أكرمه على الله عبده الذي

يلهمه الصواب ويوقفه إلى فعله بيده ... أتظنين أن هذا شيء

يسيراً هذه هي الكرامات ، وأولياء الله هم الذين يفعلون الصواب ،

ويقيمون الحق بأيديهم ... والحق من الله ...

— كنت أحسب للأولياء آيات

— إن لهم آيات . بل إن للذين أقل منهم آيات أيضاً ...

بل إن في كل الذي ترين وتسمعين من هذا الوجود آيات ...

— ما هذا التناقض ؟ تفكر عليهم الكرامات ، وتشهد لهم

بالآيات ، بل تمضي فتشهد لمن هم دونهم بها ... ثم تذوب آخر

الأمر في هذا الوجود الذي لا يمكن أن نحصره فقول إنه كله

آيات في آيات ، فما الذي تحب أن أفهمه من هذا كله ؟

— إذا استظمت فافهميه كله . ولكي تفهميه كله اذكري

الحديث الشريف من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم

يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان .

واذكري إلى جانب هذا الحديث قصة الخضر وموسى ، واذكري

مع هذا وذلك أن القرآن يروي عن حوار دار بين الكفار وبين

النبي (ص) طلب فيه الكفار منه آيات ومعجزات فأوحى إليه الحق

الجبار أن يقول لهم إن الوجود ملؤه الآيات والمعجزات . واعذرني

إذا كنت لا أحفظ نبصص الآيات . فقد استعصى على الحفظ

بفضل الطرق التي كانوا يحفظوننا بها في المدارس ...

— إنى أذكر هذه الآيات ولكنني مع هذا لا أستطيع أن

أخلص من جمها إلى الحديث الذي ذكرته ، وإلى قصة الخضر

بشيء مما تريدني أن أخلص به ...

— هذه هي عادتك ... فلو كان ما تناقشه حصة فستان

وروايح ومساحيق خلصت منها كلجن بالذي تريدني ... وأكثر

لا بأس فلتبدأ معاً ... أنت تعلمين أن كل ما في هذا الوجود يتبع

في حياته قانوناً خاصاً به . وأنه لو حاد عن هذا القانون اختل

واضطرب وفسد وقد يفقد الحياة . وأنت تعلمين إلى جانب هذا

آية ... فالخضر القدي تقب سفينة الفقراء لينقذها من اختصاب الحاكم الظاغية الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً إذا أبحته ، ولا تصعبه للثقوية ، كان في عمله هذا من أولياء الله ، أي من ملازمي الحق ، أي من الناس البارعين في خضوعهم لقوانين الحياة الصحيحة التي كان جديراً بالأفراد جميعاً أن يتبموا فلا يمتدى منهم إنسان على ملك إنسان ، أو على جهد الإنسان ، والخضر - فيما يروى كتاب الله - كانت له أفعال كثيرة كهذه ، وعلل بعضها لموسى حين ألح في سؤاله إياه عنها ، وهذا التلميل يدل على أنه كان يستطيع التمييز بين الخلائق والحوادث المنتظمة في النهج الصحيح للحياة - أو بعض ذلك - وبين الخلائق والحوادث الأخرى التي تشذ عن هذا النهج الصحيح - أو بعض ذلك - وبراعة الإيمان في الخضر ليست هي مجرد الإحساس بهذا وإدراكه ، وإنما براعة إيمانه في أنه رد الحق إلى نصابه ... وهذا فعلاً هو الأمر الجليل القدي لا يستطيعه كل إنسان ... فنحن في كل يوم نرى عيوباً وشذوذاً عن الحق يصاب بها الناس وتصاب بها الأشياء ، ولكن أكثرنا يتشاغل عنها بشئونه هو كأن شئونه لا تشمل بشئون الكون . وفليولن جداً من الناس هم الذين يلتفتون الناس بالكلام أو بوسائل أخرى من وسائل التنبيه تشبه الكلام إلى هذه العيوب ويطلبون منهم أن يصلحوها ، وهؤلاء هم الفنانون فهم أيضاً من ملتزمي الحق أي من أولياء الله ، ولكنهم ليسوا كالخضر إيماناً ولو كانوا مثله لتحولت فنونهم هذه إلى أفعال يؤديونها بأيديهم ؟ فيقيمون بها الحق ويقومون بها المعوج بدلاً من الكلام وما يشبه الكلام ، ولكنهم على أي حال أقوى إيماناً ممن لا يفعلون ولا يقولون وإنما ينظرون ويدركون وبأسفون ويمعزون ... وحتى هؤلاء أصلح حالاً ممن ينظرون فلا يدركون ، ولا بأسفون ولا يحزنون ... وما أسعد الجمهور من الناس الذي يتولى أمره نذر من هؤلاء المؤمنين ، أولئك الذين يقومون العوج بأيديهم ...

— وما حال الجمهور الذي يتولى أمره الفنانون ؟

— الفنانون فهم عيب ، وهو أهم يقولون ما لا يفعلون ...

وقد وصف القرآن الشراء بهذا ...

— هذا صحيح ، ولكن لماذا ؟

— ألم نقل إن درجات الإيمان تختلف في الخلائق ، وأن اختلافها

يظهر في مدى خضوعها لقوانين الحياة المرتقبة إلى الكمال بمظهر القوة على رد غيرها إلى مرجل الحق بالدس أو الجذب ، ثم بعد ذلك

أن كل القوانين التي تخضع لها كل الخلائق لها هي أيضاً قانون تخضع له هو قانون التطور والارتقاء الناهض إلى الكمال والموصل إلى الله واسمه الآخر ، تباركت أسماؤه . والخلائق متنوعة : منها ما يبدو لنا بإدراك ، ومنها ما لا يبدو له إدراك ، ومن الخلائق التي لها إدراك الإنسان ، وله إلى جانب الإدراك أو بهذا الإدراك إحساس وإرادة وعقل ، ثم إن له آخر الأمر قدرة على الإنتاج . وحياتة الموجودات في مجموعها حين تنزع إلى الارتقاء والكمال لا ترحف بالتساوي ولا تناسك في صف واحد ، والقدي صنع بها هذا هو تشابك القوانين المؤثرة فيها وتمقدها وتكاثر الظروف الفعالة فيها وتباين أصولها وأجهاتها ، وهذا التشابك وهذا التعمد وهذا التكاثر وهذا التباين ... كل هذه حين تتفاعل تغلي بالوجود غلياناً ، وفي هذا الغليان تنتثر بعض الموجودات فتخرج عن محيط أخواتها متطيرة متطيرة ، فأقوى ما في الموجودات هو الذي يستطيع أن يرد هذه الشاذة إلى مرجل الحياة بالدفع أو بالجذب ، وأقل قوة من هذا هو الذي يدعوها بالكلام عسى أن تقتنع وتعود إذا كانت مما يفهم الكلام ... والأقل قوة من هذين هو الذي ينظر إلى هذه الشاذة نظرة المارفي بمروقها والآسف لهذا المروق والراغب في عودتها ، والماجز عن إعادةها بالفعل أو القول . وهذا الذي وصفه النبي (ص) بأنه أضعف الإيمان ، وليس الإيمان - كما لعله واضح - إلا الخضوع بالرضى لقوانين الحياة الساعية إلى الله ، ومن أقوى هذا الخضوع ما لم يشبه التردد وما صاحبه الإدراك ، تخضوع الخضر ، ومن أضعفه الخضوع الذي لا إدراك فيه وهو خضوع الجداد والتراب ، وبين هذا وذاك درجات للإيمان - والآيات ... ؟

— الآيات هي البراعة في هذا الإيمان ... إن في تتابع الليل والنهار آية ، لأن هذا التتابع بارع ، فهو ماض منذ كان إلى ما شاء الله لم يضطرب يوماً ولم يتأخر يوماً ، ولم يحدث أن تعاقب نهاران أو تلاحقت ثلاث ليال من غير أن يتوسطها نهاران

— في القطب يطول النهار شهوراً ...

— نحن نتحدث في التتابع لا في الطول والقصر فلهذين

قانون آخر هو أيضاً آية لأنه أيضاً بارع

— طيب ...

— وكما أن للشمس والقمر براعة في إيمانها تحتم أن يكون

للناس براعة في إيمانهم ما دام الناس هم أشرف المخلوقات . وقد حدث هذا . فإن من الناس من هم بارعون في إيمانهم براعة هي

الكمال إلا بالكلام، ينبا الكلام لا يحقق هذا الكمال، وإنما تحققه الأفعال ... فالفنانون هم حقاً لا ينتجون إصلاحاً ... ولكن دعوتهم إلى الإصلاح والكمال لا بد أن تصادف مؤمناً ممن يستطيعون أن يفعلوا بأيديهم فيحقق بهذا الإيمان الذي يستقيه منهم وإيمانه الذي يهديه إليه الله ... ذلك الكمال أو جانباً مما كانوا ينشدون ... وحين وصف القرآن الشعراء بهذا الوصف الذي لا شك أن فيه كثيراً من التعبير كان الإسلام في حاجة إلى الذين يبدلون الأرواح والأجسام في تفويجه وتبنيته، ولم يكن في حاجة إلى من يقول شيئاً، لأن الله عندئذ كان هو الذي يقول ...

— إذن فليسوا الآن ضالين ...
— ولم يكونوا يوماً ضالين ما استوحوا الحق فنونهم، وإنما كان على أوارهم أن تسجد لتور الله حين يجلي الله بنوره على محمد سيد العالمين ...

— ولكن دفاعك هذا كله عنهم لا يزال عاجزاً عن رفع إيمانهم منزلة على الإيمان الشفوي كما أقول ...

— أعوذ بالله منك ومن اللوغاريتمات ... إن لإيمانهم هذا المظهر الشفوي الذي تقولين عنه لأن تبيرهم عن هذا الإيمان يكون بالكلام أو ما يشبه الكلام، ولكن إيمانهم نفسه ليس كلاماً ولا شيئاً يشبه الكلام. وإنما هو إحساس وفهم وإدراك وتمييز واهتداء إلى الحق. هم يشعرون بأنفسهم، ويشعرون بما يحيط بهم، ويشعرون بالحق في بعض هذا، وبالشدوذ عن الحق في بعضه، وهم يشعرون بأن الحق واتباعه خير من الشذوذ، فيرجون أن يحدث هذا الحق، ويتصورون أنه قد حدث فعله لأنهم يستطيعون بمقولهم أن يرتبوا النتائج على المقدمات، ومتى اهتموا إلى علاج للمعيب الذي يرونه فإن أنفسهم تحيل إليهم أن هذا العلاج قد تم بالفعل وأن الخلائق قد صلحت بعد ذلك واتبعت قوانين الحياة الصحيحة ... وهم يصفون هذا كله بفنونهم: يصفون رجاءهم، ويصفون علاجهم، ويصفون آثار هذا العلاج ويصفون قبل هذا وذاك الأشياء التي يرونها على ما هي عليه بما فيها من خير وما فيها من شر ... ولو أنهم عدلوا عن هذا الوصف إلى الإصلاح باليد لما قلت عنهم إن إيمانهم شفوي، وإنما الذي يسحبك إلى هذه المناظرة هو المظهر الشفوي لإيمانهم. وحرام عليك هذه القسوة

— ولكن من الفنانين عابثين، وإن منهم داعرين ...

— ليس هؤلاء فنانين، وإنما هم حيرانات يتفتنون.

هذه هي

بالنداء أو الكلام ثم بعد ذلك بالأسف ... إلى آخر هذا الذي قلناه — هيه ...

— الفنانون إيمانهم من الدرجة الثانية ومظهره أنهم يقولون، أو ينتجون من الفن ما يشبه القول، وتنظرون بعد ذلك إلى أن الفن فترين فيها ما قد يتناقض مع أقوالهم ...

— أو لا يستطيعون أن يصلحوا من أنفسهم؟

— يستطيعون ... والله لا يمنع الرق عن إرادته، وقد علمنا في القرآن وفي الإنجيل وفي التوراة أن تناديه وأن نطلب منه الهداية إلى الطريق المستقيم، وليس هذا الذي علمنا إياه عبثاً، وهو لم يقل لنا: «أدعوني أستجب لكم»، وفي نفسه ألا يستجيب ... وإنما هو الرحمن يريد أن يستجيب، ويطلب منا أن ندعوه لئلا يستجيب ... ففي يد كل إنسان إذن أن يطلب من الله ما يريد على أن يكون الذي يريده شيئاً مما يعطيه الله الذي هو الحق والذي هو الرحمن والذي هو العادل، والذي هو الهادي .. فالهداية إذن بابها مفتوح ... وإنما علينا أن نطلبها ...

— علمي كيف أطلبها لعل الله يهديني فأكون من أولياء الله الصالحين ...

— أظن ذلك يكون بأن تعدى لها نفسك أولاً ... أنت تريد أن تهدي للحق، فهدي نفسك للحق ... ثم اعرفي الحق ثم ابذريه في نفسك، ثم تهديه بالحفظ والصون، ثم غديه واستقيه حقاً وحقاً ... عندئذ لا بد أن يشعر الحق في نفسه حقاً هو أزمى الحق وأزكى الحق ... وسترين نفسك بعد ذلك، تقولين الحق كما يفعل الفنانون، ثم إذا رضى الله عنك رأيت نفسك تفتلين الحق بيدك كما يفعله أولياء الله الصالحون رضى الله عنهم ... أظن أن هذا هو الطريق ... بل إنه الطريق

— فلماذا لا يعنى الفنانون في طريقهم هذا إلى نهايته؟

— ما داموا يستطيعون؟

— لعل لإيمانهم بيراعتهم في إيمانهم يستهويهم.

— هذا الإيمان للشفوي الذي لا غناء فيه، والذي لمنهم

القرآن من أجله ...

— ليس إيمان الفنانين شقوياً يا هذه، وإن القرآن لم يلهمهم يا تلك ... بل إن القرآن وسفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون وهذا حق لأنهم هكذا، وقال عنهم القرآن إنهم يتبعهم للتعاون وهم الذين يستهويهم كلام الشعراء وفنون غيرهم من الفنانين، ويهيمون وراهم في دنيا كلها خيال تريد الكمال ولكنها لا تطلب